

فلسفة نظرية التعلم والتعليم عند إخوان الصفاء وخلان الوفاء(334هـ - 373هـ)

د/صبرينة خلفاوي
جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي-

Sabrina15mars@gmail.com

تاريخ النشر:2020/12/30

تاريخ القبول:2020/11/23

تاريخ الإرسال:2020/08/10

الملخص:

إن نظرية التعلم ليست ثمرة العصر الحديث بل هي موروث الحضارة الإسلامية. فقد اهتم السابقون بالعلم والتعليم، والتركيز على المتعلم باعتباره محور العملية التعليمية التعليمية، ومن فلاسفة القرن الرابع الهجري اخترنا إخوان الصفاء وخلان الوفاء الذين حرصوا على إرساء نظرية التعلم والتعليم؛ نظرا لحاجة المجتمعات البشرية إلى التعليم وأهمية إتقانه وصولا إلى الجودة العلمية التي تؤهل الأمم إلى مستويات نوعية للتطور والإبداع. وفي هذه الورقة البحثية، اتجهنا إلى كشف أهم العقائد الفلسفية التي تخص اللسانيات التعليمية التي وجدناها مبثوثة في رسائلهم بدءا من المفهوم الفلسفي للعلم والتعلم والتعليم، ثم توضيح دور الحواس الخمس في اكتساب التعلم، وذلك بمعونة القوى التعليمية ك: الفكرية والناطقة...، لنختم بأهمية العلم وفضله، وخصال طالب العلم. الكلمات المفتاحية: علم؛ تعلم؛ تعليم؛ حواس التعليم؛ قوى تعليمية.

Abstract:

The theory of learning is the legacy of Islamic civilization. The antecedents cared for science and education and focusing on the learner as the base of the educational knowledge process, and from the fourth century's philosophers AH we chose the Ikhwan al-Safa 'and Khallan al-Wafa' who were keen to establish the theory of learning and education; human societies demand education and mastering it, leading to the scientific quality that qualifies nations to high levels of development and creativity.

The aim of this article, detect the most important philosophical ideology related to educational linguistics that we have found in their messages, starting with the philosophical concept of science, learning, and education,

then the role of the five senses in learning, by helping of educational forces such as intellectual and speaking ..., to conclude The importance of knowledge and the characteristics of the knowledge's student.

Key words:science; learning; education; senses in learning; educational forces.

مقدمة:

إن التعلم جوهرى للوجود الإنساني وأساسي للتربية ، وهو منطلق للدراسة ولازم لفهم حقيقة العقل البشري ، ومنذ أن بدأت العناية بدراسة سلوك الإنسان ظل التعلم وقضاياها موضع اهتمام الباحثين والدارسين ، حتى إن أمثال أرسطو والقديس أوغسطين وجون لوك يعدون التعلم قضية رئيسة لتطور المجتمع ورقية ، وقد أولى حكماء القرن الرابع الهجري وخاصة إخوان الصفاء عناية فائقة بنظرية التعلم ، وأنواعه ، والقوى المتحركة في التعلم ، وخصال طالب العلم...، كما بلغ الاهتمام بقضايا التعلم ومشكلاته ذروته في القرن العشرين ، فما أوجه الاتفاق بين نظرية التعلم والتعليم لدى إخوان الصفاء والمحدثين ؟.

ويعرف (ديفس) النظام التعليمي بأنه: تنظيم العناصر الموجودة وتفاعلها مع بعضها لتحقيق تعلم التلاميذ عن طريق المعلم الذي لا بد أن يندمج ويشارك في التخطيط التعليمي وفي تطوير الأنظمة التعليمية ، وعناصر الموقف التعليمي في رأيه (المتعلم-الأهداف التعليمية- تحقيق الأهداف التعليمية-التقويم) ، ونظام التعليم الأساسي يحوي مجموعة من الأنظمة الفرعية متمثلة في مناهجه- ميادينه- تجهيزاته¹.

وقد أبدى إخوان الصفاء حرصهم بالنظام التعليمي في تلك الفترة من القرن الرابع الهجري وأصبغوه بطابع فلسفي ديني ، وتبعوا مراحل التعلم والتعليم من مرحلة الرضاعة إلى مرحلة النضج العقلي للمتعلم واشترك حواسه الخمس في بناء نظامه التعليمي التعليمي وتنقله من مرحلة التعلم بالمحسوسات (المادي) إلى مرحلة التجريد ثم التحليل والتركيب ، ليركزوا فيما بعد على أهمية طلب العلم وأنواع العلوم التي يتخصص فيها المتعلمون ، مبرزين أهم الأخلاق التي على المتعلم التحلي بها ، وهذا ما يوافق اللسانيات التعليمية التي جاء بها العصر الحديث.

أولاً: هيولى العلم والتعلم والتعليم

قال إخوان الصفاء: "واعلم أن العلم ليس بشيء سوى صورة المعلوم في نفس العالم ، وأن الصنعة ليست شيئاً سوى إخراج تلك الصورة التي في نفس الصانع العالم ووضعها في الهيولى. واعلم يا أخي أن أنفس العلماء علامة بالفعل ، وأنفس المتعلمين علامة بالقوة ؛

والتعليم ليس شيئاً سوى إخراج ما في القوّة إلى الفعل ، والتعلّم هو الخروج من القوّة إليه ؛ وأن كلّ شيء بالقوّة لا يخرج إلى الفعل إلاّ لشيء هو بالفعل يُخرجه إليه ، وأنّ النّفس الكلّيّة الفلكيّة هي علامة بالفعل ، والأنفس الجزئيّة علامة بالقوّة. فكلّ نفس جزئيّة تكون أكثر معلومات وأحكم مصنوعات ، فهي أقرب إلى النفس الكلّيّة ؛ فبها نسبتها إليها وشدّة شبهها بها ، كما قيل في حدّ الفلسفة إنّها تشبّه بالإله بحسب الطاقة الإنسانيّة. فاجتهد أن تكتسب معلومات كثيرة تكنّ أفعالك كلها حكمه زكيّة ، فإنها القنيّة الروحانيّة ، كما تجتهد أبناء الدنيا في اكتساب المال الذي هو القنيّة الجسديّة².

عرف إخوان الصفاء العلم أنه هو صورة معلومة في نفس المتعلم أي عقله وأنه بحاجة إلى قوة صانعة تتمكن من إخرجه فهو إذن موجود عند المتعلمين بالقوة وما المعلمين إلا وسيلة فعليّة لإخراج تلك الصورة. وهو ما ذهب إليه أينشتاين في تعريفه العلم فقال: "العلم كشيء موجود ، ومكتمل هو أكثر الأشياء موضوعية بينما عرفه الإنسان. لكن العلم من حيث الخلق والإبداع ، ومن حيث كونه نهاية تتطلب المتابعة ، يعتبر أمراً ذاتياً تحكمه شروط سيكولوجية شأنه شأن أي فرع من فروع الاهتمامات البشرية ، حيث إنك إذا سألت: ما هو الغرض من العلم؟ ، وما هو معناه؟ تلقيت إجابات تختلف من زمن إلى زمن ومن نوع إلى نوع من الناس"³ ، ونظراً إلى الصلة الوثيقة بين العلم والفلسفة ، فقد كانت المعارف الإنسانيّة ابتداءً بالحقائق المشهودة وانتهاءً بالمبادئ الجليّة ، تسمى علماً كما كانت تسمى فلسفة ، مع أنّهما يدرسان اليوم في أقسام مختلفة. وقد اصطبغ العلم بالمهارة والتقنيّة ، فضلاً عن دوره المعرفي غير أن ذلك لم يتضح إلا بعد انفصال العلم عن الفلسفة⁴. وهو ما ذهب إليه الكندي: "العلم هو وجدان الأشياء بحقائقها"⁵ ، وعرفه الشريف الجرجاني: "العلم هو الاعتقاد المطابق للواقع ، وقال العلماء هو حصول صورة في العقل ، والأول أخص من الثاني ، وقيل العلم: هو إدراك الشيء على ما هو به ، وقيل: زوال الخفاء من المعلوم والجهل نقيضه... وقيل العلم صفة راسخة يدرك بها الكليات والجزئيات ، وقيل العلم وصول النفس إلى معنى الشيء"⁶.

ويبدو أن العلم في فهمنا المعاصر لا يختلف عن فهم إخوان الصفاء ، فهو لا يخرج عن كونه نشاطاً معرفياً منهجياً منظماً ، يتداخل فيه العنصر التجريبي بالعنصر العقلي ، ويهدف إلى اكتشاف القوانين الناظمة للكون ، بغية زيادة سيطرة الإنسان على بيئته وإحكام تعامله مع عالمه. وهذه المعرفة هي معرفة شاملة تسري على جميع أمثلة الظاهرة التي يبحثها العلم ولا شأن لها بالظواهر في صورتها الفردية ، فضلاً عن أنّ الحقيقة العلميّة تفرض نفسها على الجميع بمجرد ظهورها ، وتصبح ملكاً عاماً متجاوزة النطاق الفردي لمكتشفها ، والظروف الشخصية التي ظهرت فيها ، الأمر الذي يجعلها يقينية⁷ ، وفي اللغة العربيّة ارتبط معنى العلم

يادراك حقيقة الأشياء سواء أحصل الإدراك من طريق الحواس أم من طريق العقل واقترن العلم العربي كذلك بمعرفة الحقيقة ؛ ذلك أنه في نظرهم صور يتحلّى بها العقل ، ولا يدخل إليها الكذب في وجه من الوجوه⁸.

ويختلط الأمر على كثير من المعلمين في بعض المصطلحات التربوية كالتعليم والتعلم والتدريس والفرق بينهم. والملاحظ للكتابات النفسية والتربوية يتبين عمومية وشمول مصطلح التعليم عن مصطلح التدريس ، فالتعلم علم ، والتدريس تكنولوجيا حيث يتم فيها تطبيق وتوظيف ما كشف عنه العلم في مواقف تعليمية وتربوية.

● فمصطلح التدريس: عملية مقصودة ومخططة يقوم بها المعلم داخل المدرسة أواخرها وتحت إشرافها

يحدث فيها تفاعل بين المدرس والطلاب ولكل منهما دوره الذي يمارسه من أجل تحقيق أهداف مخطط لها ، إن التدريس عبارة عن العملية التي يقوم فيها لمعلم بنقل المعلومات والمعارف بطريقة منظمة من الكتاب المدرسي إلى التلاميذ. ولهذا نجد علم التدريس تنطبق عليه وتحقق فيه شروط العلم ، فالتدريس مهنة تتطلب إعداد أكاديمي نظري وتطبيقي ، ويتضمن سلوك التدريس مجموعة الأفعال التواصلية والقرارات التي يتم توظيفها بكيفية مقصودة من المدرس الذي يعمل كوسيط في إطار موقف تربوي تعليمي. فالتدريس من بين الأساليب والعمليات والإجراءات التي تستخدم لإحداث عملية التعليم وعملية التعلم.

● أما مصطلح التعليم: فيقصد به عملية مقصودة أو غير مقصودة تتم داخل المدرسة أواخرها في أي وقت ويقوم بها المعلم أو غير المعلم. التعليم يصح مع المعارف والقيم والمهارات⁹.

ومن خلال التعريفات السابقة وعلاقتها بتعريف إخوان الصفاء نلاحظ تفتنهم إلى مفهوم مصطلح التدريس في الاستعمال المعاصر مع جمعه بمفهوم التعليم الذي ليس شيئاً سوى إخراج ما في القوة إلى الفعل ؛ وذلك بفضل التفاعل بين المدرس (المنشط والمفعول والموجه للعملية التعليمية التعليمية) والطلاب (الذين يملكون القوة على الاستيعاب ، واستقبال المعلومات ، وتوظيف مكتسباتهم في أنشطة تعليمية تعليمية) من أجل تحقيق أهداف وكفاءات مخطط لها.

● أما مصطلح التعلم: فهو مفهوم شامل وواسع جداً ، وهو أساس العملية التعليمية ، فلا يكاد أي نمط

من أنماط السلوك البشري أن يخلو من نوع ما من التعلم واستندت مفاهيمه إلى علم النفس والتربية والتعلم الحركي ، وعرفه إخوان الصفاء بأنه: الخروج من القوّة إليه ؛ وأن كلّ شيء بالقوّة لا يخرج إلى الفعل إلاّ شيء هو بالفعل يُخرجه إليه ، وأنّ النفس الكليّة الفلكية هي علامة بالفعل ، والأنفس الجزئية علامة بالقوّة. فكلّ نفس جزئية تكون أكثر معلومات وأحكام مصنوعات ، فهي أقرب إلى النفس الكليّة ؛ لقرب نسبتها إليها وشدة شبهها بها. أي تحويل القوة إلى فعل انطلاقاً من الجزئيات إلى الكليات حتى يتم التحكم في المعارف والصناعات ، وهو نفس الوصف الذي ذهب إليه المحدثون ك: (ثورب) الذي قال بأن: "التعلّم مجموعة تغيرات تكيفية تحدث لسلوك الفرد وهي في محصلتها تعبير عن خبراته في التلاؤم مع البيئة ، أي أن التعلّم عملية تغير سلوك الإنسان بفعل الخبرة"¹⁰ ، وعرفت (لندال-دافيدوف) التعلم بأنه: "تغير دائم نسبياً في السلوك يحدث نتيجة الخبرة"¹¹ ، وعرفه (ماكونل) بأنه: "التغير المطرد في السلوك الذي يرتبط من ناحية بالموافق المتغيرة التي يوجد فيها الفرد ويرتبط من ناحية أخرى بمحاولات الفرد المستمرة للاستجابة لها بنجاح"¹².

ويتفق (علاوي) مع العديد من علماء النفس على أن التعلم: "هو عملية تغيير أو تعديل في سلوك الفرد نتيجة قيامه بنشاط على شريطة ، ألا يكون هذا التغيير أو التعديل قد تم نتيجة للنضج أو لبعض الحالات المؤقتة كالتعب أو تعاطي بعض العقاقير المنشطة وغير ذلك من العوامل ذات التأثير الوقتي على السلوك والأداء"¹³. ويمكن التعرف على أربع خصائص مميزة تساعد في تعريف التعلم:

- أ. تعديل: ويعني أن التغيير هو جزئي وليس تغيراً كلياً.
- ب. ثابت نسبياً: ويعني أن التعديل الحاصل ليس مطلقاً ، نظراً لعدم وجود ثابت مطلق في التعلم.
- ت. السلوك: ويقصد به الأداء والأفكار والقيم والاتجاهات والمهارات الحركية ومن المعلوم أن السلوك يتألف من ثلاثة جوانب هي:
 - * الجانب الفكري: كالأداء والأفكار.
 - * الجانب الوجداني: كالاتجاهات والقيم.
 - * الجانب الحركي: كالسباحة والرمية.
- ث. ناتج عن الممارسة: ويعني أن التعديل أو التعلم ناتج عن العمل وليس عن طريق الصدفة¹⁴.

فالتعلم يصعب ملاحظته بصورة مباشرة لأنه تغيير داخلي ، ويستدل عليه من خلال التغيير في السلوك وهو ما تؤكدته (لندا دافيدوف) بأن التعلم: "نشاط يحدث داخل الكائن الحي لا يمكن ملاحظته بصورة مباشرة وبتغيير المتعلمون بطرق غير مفهومة تماما حيث يكتسبون الجديد من: الارتباطات ، المعلومات ، الاستبصارات ، المهارات ، العادات ، وما شابه ذلك"¹⁵ . ويقسم (HortonandTurnage) تاريخ البحث في التعلم إلى ثلاث مراحل:

❖ مرحلة ما قبل السلوكية: وبدأت بفكرة فلسفية تنسب إلى (جونلوك) الذي يقال إنه وضع الأساس لنظرية تداعي الأفكار في بريطانيا والذي يقول بأن العقل البشري يولد صفحة بيضاء تخط الخبرة عليها فيما بعد في حين نادى (عمانويل) بإحياء مفهوم سابق للتعلم مفاده أن العقل البشري لديه عملياته الفطرية الخاصة على نحو مستقل عن الخبرة التي قال عنها (لوك) ويقصد بالفطرة أن العقل البشري لديه أساليب لم يتعلمها ينظم وفقا لها ما يصله من معلومات ، وهذه المرحلة تعرض لها إخوان الصفاء الذين اعتبروا المعلم القوة الفعلية في إخراج قوة المتعلم وتوجيهها.

❖ المرحلة السلوكية: وهي الشكل المتطرف لنظرية الارتباط الذي تبناه (واطسون) فقد جاء نتيجة تأثير (إيفان بافلون) الذي يعترف بدوره بفضل (شارلز داروين وثورانديك) عليه ، كما أن ما قدمه (بافلوبوثرانديك وواطسون) كان له تأثير على أعمال لاحقة هامة في مجال النظرية السلوكية.

❖ المرحلة المعاصرة: تم الاتجاه إلى بذل مزيد الجهد نحو وضع تخطيط للقدرات المعرفية والوجدانية للكائن العضوي في التعلم وقل الاهتمام بالكشف عن تلك الأنماط المنتظمة في سلاسل الأحداث السلوكية التي يمكن التوصل إليها بطريقة تجريبية ، بينما ازداد الاهتمام بالدافعية والاقتران والتعزيز¹⁶ .

ويعرف التعلم عموما ، بكونه عملية تغيير شبه دائم في سلوك الفرد. ولا يمكن ملاحظته مباشرة ، ولكن يستدل عليه من أداء الفرد وينشأ نتيجة الممارسة ، وهذا ما أثبتته إخوان الصفاء في آخر نصهم (فاجتهد أن تكتسب معلومات كثيرة تكن أفعالك كلها حكمة زكية ، فإنها القئية الروحانية ، كما تجتهد أبناء الدنيا في اكتساب المال الذي هو القئية الجسدية). وقد يتفق علماء النفس عموما ، على أن التغييرات السلوكية الثابتة نسبيا تندرج تحت التغييرات المتعلمة ، وهذا يعني أن التغييرات المؤقتة في السلوك لا يمكن اعتبارها دليلا على حدوث التعلم. ويشير هذا التعريف أن التعلم تغيير في الحصيلة السلوكية أكثر ما هو تغيير في السلوك ، وقد اكتشف المختصون في علم النفس أن السلوك لا يعتبر مؤشرا للتعلم ، وإن غياب السلوك ليس دليلا على عدم التعلم¹⁷ .

ثانيا: الحواس الخمس التعليمية

عقد إخوان الصفاء فصلا بعنوان (في بيان ما يخص الإنسان من المعلومات) حيث بينوا أهمية الحواس في اكتساب البيان والتعلم فقالوا: "إن الله لما خلق الإنسان الذي هو آدم أبو البشر-عليه السلام وفضله على كثير ممن خلق قبله تفضيلا-جعل أحد فضائله كثرة العلوم وغرائب المعارف وجعل له البيان عدة طرق: فمنها طرق الحواس الخمس التي بها يدرك الأمور الحاضرة في المكان والزمان...، ومنها طريق استماع الأخبار التي ينفرد بها الإنسان دون سائر الحيوانات يفهم بها الأمور الغائبة عنه بالزمان والمكان جميعا-كما ذكر الله تعالى ومن به عليه فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾-، ومنها طريق الكتابة والقراءة يفهم بها الإنسان معاني الكلام واللغات والأقاويل بالنظر فيهما عمن لم يره من أبناء جنسه مع الزمان وأومنه وغائب عنه بالمكان-كما قال الله ومن به الإنسان فقال لنبيه محمد عليه السلام: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾-وبهذه الفضيلة شارك الإنسان الملائكة الكرام كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾¹⁸.

أكد إخوان الصفاء في نصهم أهمية الحواس الخمس وهي ميزة إنسانية عن سائر المخلوقات، وهي إحدى طرق بيانه، وبينوا دورها في اكتساب التعلم وإدراك الأمور التي تحدث من حوله، وأثبت العلم الحديث صدق نظرية إخوان الصفاء حين اعتبروا أن المعلومات التي يستقبلها المخ من البيئة الخارجية في يوم واحد أكثر من المعلومات التي يأخذها الكمبيوتر في عام، وتنتقل المعلومات إلى المخ عن طريق الحواس الخمس، فكل المثيرات التي تدخل إلى المخ كومضة من المثيرات الكهربائية المولدة من النيرونات المثارة في تتابع خلال القنوات الحسية الخاصة، فالمخ لا يرى الموجات الضوئية أو يسمع صوتا. فالحواس لا تسهم بقدر متساو في تعلمنا وما نفعله في حياتنا فحواس البصر والسمع واللمس تؤدي دورا بارزا في التعلم الجديد¹⁹.

ويذكر إخوان الصفاء أن عملية فهم المحسوسات تسبق فهم الكلام والأقاويل ثم تأتي عملية فهم القراءة والكتابة لدى الطفل ويتضح ذلك في قولهم: "واعلم أن فهم القراءة والكتابة ومعرفتها متأخرة عن فهم الكلام والأقاويل، كما أن فهم الكلام والأقاويل معرفتها إنما هي متأخرة عن فهم المحسوسات كما هو بين ظاهر لا يخفى على العقلاء، وذلك أن الطفل إذا خرج من الرحم فإنه في الوقت والساعة تدرك حواسه محسوساتها في حسب القوة اللامسة الخشونة واللين، وبالقوة الباصرة النور والضيء، وبالقوة الذائفة طعم اللبن، وبالقوة الشامة الروائح، وبالقوة السامعة الأصوات ولكنه لا يعلم معاني الكلام والأصوات إلا بعد حين: فأول

شيء يحس باللمس في تألم لأن حاسة اللمس أعم الحواس ، ثم يحس بالطعم فيميز لبن أهمهم نغيره ، ثم يميز بين الروائح في عرف الشم ، ثم يميز بين الصوت الشديد الجهير ، وبين الصوت الضعيف الخفيف ، ثم يفرق بين الصور ، ثم يميز على ممر الأوقات بين نغمة الأم ونغمة الأب والأخوة والأخوات والأقرباء وغيره. ثم شيئاً بعد شيء على التدريج وعلى هذا المثال فهمه ومعرفته بسائر الحواس ومحسوساتها إلى أن تتم سنّ التربية ويغلق بالرضاع ويفتح باب الكلام والنطق²⁰. وبعد هذه المرحلة تأتي مرحلة الكتابة والقراءة وتعلم جميع المعارف والصناعات والعلوم فيقول إخوان الصفاء: "ثم بعد ذلك تحيء أيام الكتابة والقراءة والآداب والصناعات والرياضات وأسماع الأخبار والروايات ، وفقه في الدين والنظر في العلوم والمعارف ، وطلب حقائق الموجودات ، والبحث عن الكائنات ، والاستدلال بالحاضرات على الغائبات ، والمحسوسات على المعقولات ، وبالجسمانيات على الروحانيات ، وبالرياضيات على الطبيعيات ، وبالطبيعيات على الإلهيات التي هي الغاية القصوى في العلوم والمعارف والسعادة الأبدية والدوام السرمديّة"²¹.

كما أولى إخوان الصفاء عناية فائقة بمهارات التعلم كالاستماع والقراءة والكتابة وهي مهارات تفرد بها الإنسان وكرمه الله بها عن الحيوان ، وما يلفت الانتباه في نصهم حيث يكتسب الطفل في بدايته مهارات الاستماع ، بما في ذلك التركيز والانتباه المقصود لما يسمع محاولاً فهمه ، وكلما تطورت مهارات الفهم السمعي لديه ، كان ذلك مدعاة لنمو الفهم القرائي اللاحق لديه ، فالفهم عملية عقلية لا تنجز ، وهي عملية مشتركة بين القراءة والاستماع. وثمة علاقة أخرى بين القراءة-عملية عضوية-تقوم بها أعضاء النطق تعتمد في جوهرها على الاستماع ؛ لأن القارئ يستمع إلى صوت نفسي داخلي(يوظف البصر فيه)عندما يقرأ قراءة صامتة ، وكلما كان استماعه جيداً كان فهمه أفضل ، وكانت قراءته أكثر دقة واثقاً ، وختم إخوان الصفاء التعلم بمهارة الكتابة ، حيث ترتبط القراءة بالكتابة ارتباطاً مباشراً ؛ لأنها تمثلان طرفي الرسالة الكتابية بما بينهما من اعتماد متبادل-فهما وجهان لعملة واحدة وهي المعرفة ، فإذا كانت القراءة تمثل عملية تلقي المعرفة ، فإن صنعة الكتابة-عملية يدوية-تمثل المنتج ؛ بل هي المعرفة ذاتها²².

وتعد الحواس الخمس في نظر إخوان الصفاء الوسيلة التي بها تدرك المحسوسات دون أن يُعلم معانيها كالصوت والأصوات إلا بعد حين عندما ينضج العقل لدى الطفل وهذا ما صرح به العلم. فالحواس تستقبل من البيئة معلومات كثيرة خلالك لثانية وحتى أثناء النوم ، فإن النهايات العصبية في الجلد تشعر بالملابس التي ترتديها ، وتسمع أذنك الأصوات التي تدور حولك ، والعينان تلتقطان صور الأشياء وأشكال متنوعة ، ويشم أنفك الرائحة عند تذوق

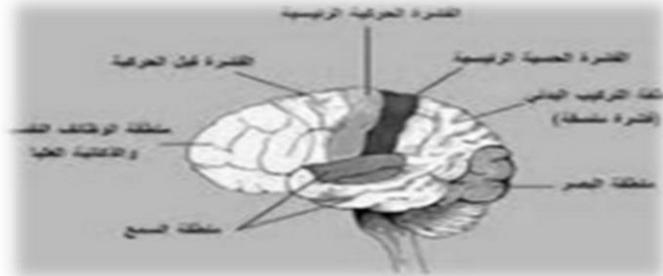
الطعام ، فإن كل هذه الجزئيات تضيف معلومات جديدة للإنسان ، لذا يجب أن يكون المثير قويا حتى يتم استقباله بصورة صحيحة من قبل هذه الحواس...وهذا ما تؤكد عليه في العملية التعليمية والتدريبية من خلال توفير بيئة تعليمية غنية بالمثيرات التي تكون ذا تأثير فعال في نتائج مخرجات التعلم²³ ، وهذا ماسعى إخوان الصفاء وكأن بهم ينادون بالنظرية السلوكية والاشتراطية التي تعتمد على المثير والاستجابة ، وقد ركز القدماء على تشغيل حاستين فقط هما: السمع والبصر وهي صفات النمط التعليمي التقليدي إلا أن إخوان الصفاء اعتمدوا على جميع الحواس الموجودة لدى الإنسان من أجل تحصيله المعرفي والوجداني والسلوكي ، وقد قدّم كلٌّ من (كوفاليك وأولسن) نموذجا تعليميا مبنيا على أساس استخدام أكثر كمية من الحواس ك:حاسة المغناطيسية ، والكهربائية ، القرب ، الدهليزية ، الاتزان ، الأنفية ، الألم ، الحرارة ، الشم ، الذوق ، اللمس ، الخيال ، السمع ، البصر ، الخيال التذكري ، تحت الحمراء ، فوق البنفسجية ، الأيونية ، الباروميترية ، الجاذبية الأرضية²⁴.

ثالثا: القوة المفكرة:

يولي إخوان الصفاء أهمية بالغة للقوة المفكرة تعينها في ذلك أفعال القوة المتخيلة وأفعال سائر القوى الحساسة الداركة ، وحددوا لها مناطق معينة في الدماغ فقالوا: " فنقول اعلم أن للقوة المفكرة خواصا كثيرة وأفعالا عجيبة تستغرق فيها أفعال هذه القوة المتخيلة وأفعال سائر القوى الحساسة الداركة ، وذلك أن أفعال هذه القوة نوعان: فمنها ما يخصها بمجردها ، ومنها ما تشترك هي مع قوة أخرى من قوى النفس ، فمن ذلك الصنائع فإن أكثرها أفعال مشتركة بين هذه القوى المفكرة التي آلتها وسط الدماغ ، وبين القوى الصناعية التي آلتها اليدان ، ومنها الكلام والأقاويل واللغات أجمع فإنها أفعال مشتركة بين هذه القوة وبين القوة الناطقة التي آلتها اللسان ، ومنها تناول رسوم المحسوسات المتخيلات فإنها أفعال مشتركة بينه وبين المتخيلة التي آلتها مقدم الدماغ ، ومنها تناول رسوم المعلومات المحفوظة فإنها المشتركة بين هذه وبين القوة الحافظة التي آلتها مؤخر الدماغ"²⁵.

يعدّ دماغ الإنسان كيانا مثيرا للدهشة فهو عالم خاص مليء بعدد غير محدود من القدرات الهائلة والأمور الخفية وهو مركز القوة المفكرة يتمتع بقدرات وامكانيات تجعل منه أعظم قوة وجدت على سطح الأرض وهو تكريم من الله وميزة خصّها للإنسان ، وهذا ما حاول إخوان الصفاء التنويه له مرارا في كثير من مواضع رسائلهم ، وقد قسموا الدماغ إلى مناطق ومراكز مختصة كل واحد له دور منوط به ، فعلماء اليوم يقسمون الجهاز العصبي المركزي الذي يتألف من الدماغ والحبل الشوكي ، وهذه تشمل مراكز الدماغ التي تتحكم بالتذكر والتفكير والأعمال الإرادية ، أما القسم الآخر فهو الجهاز العصبي المحيطي الذي يتألف من الأعصاب

الدماغية والنخاعية ، ويعد الدماغ من أهم أجزاء الجهاز العصبي فهو مركز أفكارنا وعواطفنا وهو بمثابة مركز القيادة والسيطرة الذي يخطط لحل مشاكلنا²⁶.



ويوضح علماء العصر أن القسم الأيسر من الدماغ تتعلق قدرتنا على التعبير الواعي فهو مركز عقلي منطقي وظيفي عملي ، والقسم الأيمن توجد فيه مراكز الحدس والإحساس بالمحيط وبالوقت وفيه مركز التخيل والإبداع²⁷ ، وتعتبر قشرة الدماغ التي تغطي نصفي الدماغ المسؤولة عن مهارات التفكير العليا ، وفيها تجري عمليات القراءة والاستيعاب والتحليل وحل المشكلات واتخاذ القرارات وهي مهمة لدى التربويين ؛ وذلك لأن فيها تخزين المعلومات التي يتعلمها الطالب وتسترجع عند الحاجة ، أما الذاكرة الرئيسية الطويلة الأمد للتعلم توحد في المخيخ كما أنه مركز يختص بالعمليات السلوكية والتوازن²⁸ ، وهذا ما توصل له إخوان الصفاء (القوة الحافظة التي آلتها مؤخرالدماغ) ، ليتوصل أهل التربية أن التعلم الفعال هو الذي يستخدم الدماغ بجانبه حتى يتناسب مع تفضيلات جميع الطلبة²⁹ ، وهو ما أراد إخوان الصفاء التنويه له فالتعلم يتم بجميع القوى الحركية كاستعمال الأيدي للكتابة والإشارة وأعضاء النطق للكلام والتخيل للتحليل والقياس والذاكرة للحفظ والاسترجاع.

وحدد إخوان الصفاء الأفعال التي تخص القوة المفكرة وهي تتجلى في قولهم: "وأما الأفعال التي تخصها بمجردا فهي: الفكر والروية والتمييز والتصور والاعتبار والتركيب والجمع والقياس البرهاني ، ولها أيضا الفراسة والزجر والتكهن والخواطر والإلهام والوحي ورؤية المنامات وتأويلها"³⁰ ، وقد بين إخوان الصفاء كيف تتم هذه الأفعال وذلك في قولهم: "أما بيان ذلك فنقول: أن الإنسان بالتفكير يستخرج غوامض العلوم بالروية ويمكن له تدبير الملك والسياسة ، وبالاعتبار يعرف الأمور الماضية مع الزمان ، وبالتصور يدرك حقائق الأشياء ، وبالتركيب يستخرج الصنائع ، وبالتحليل يعرف الجواهر البسيطة والمركبة ، وبالجمع يعرف الأنواع والأجناس ، وبالقياس يدرك الأمور الغامضة الغائبة بالزمان والمكان ، وبالفراسة يعرف ما في الطبائع ، وبالزجر يعرف الحوادث وتصاريف الأحوال ، وبالتكوين يعرف الكائنات

بموجبات الأحكام الفلكيات ، وبالمنامات وتأويلها يعرف الكائنات والبشارات والاندازات ، وبقبول الوحي والإلهام يعرف الوضع للنواميس الإلهية وتدوين الكتب المنزلة³¹ .
وقد أدرك إخوان الصفاء تفاوت درجات العقول في معرفة الأشياء فقالوا: "ثم اعلم أن العقلاء متفاوتو الدرجات في معرفتهم هذه الأشياء التي تعلم بأوائل العقول تفاوتاً بعيداً جداً. والدليل على ذلك بما قلنا أنك تجد كل إنسان يكون أكثر تأملاً من المحسوسات وأجود اعتباراً للمخيلات فإن الأشياء التي تعلم بأوائل العقول تكون في نفسه أكثر عدداً وأشد تحقيقاً من غيره من الناس مثل المشايخ والمُجربين للأمور المحسوسة. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وقال: ﴿وَعَلَّمْتُم مِمَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ وقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ﴾ وقال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾³² ، وهذا النص وردت فيه عبارة مهمة وهي (متفاوتو الدرجات) وهو ما يشير إلى مصطلح اليوم (الفروق الفردية) حيث يعتبر الأفراد الموهوبون والمتفوقون ليسوا مجتمعاً متجانساً ، ولن يتوقع أن يظهر كل الموهوبين والمتفوقين الخصائص أو السمات العقلية المعرفية نفسها ، بل يظهرون مدى شاسعاً من الفروق الفردية ، وليس هنا كخاصية واحدة تمثل الموهبة والتفوق بشكل قاطع ، فكلما ازدادت درجة الموهبة والتفوق عند الفرد كلما ازدادت درجة تفوقه عن غيره. فالخصائص العقلية المعرفية ليست ثابتة أو جامدة ، ولكنها تتطور من خلال التفاعل مع البيئة بدرجات متفاوتة ، كما أن تلك الخصال التي يتميزون بها يبرزون أقرانهم في مستوى الذكاء ، فمعدلات ذكائهم تعادل ذكاء من يكبرهم سناً ، كما أن العمر العقلي لديهم يفوق عمرهم الزمني ، وامتلاكه مقدرات لغوية متقدمة تشمل وجود مهارة فائقة على الاستيعاب ، كما يتصفون بالدافعية المرتفعة والمثابرة ، والقدرة على التركيز والانتباه لفترات أطول من زملائهم العاديين³³ .

ويعترف إخوان الصفاء بدرجات العلماء فالعلم لا نهاية له وذلك في قولهم: "واعلم يا أخي أن المؤمنين درجاتهم متفاوتة الإيمان ، كما أن العلماء متفاوتون في درجات العلوم ، وذلك أن الإنسان لا يبلغ درجة في العلم إلا ويلوح له فوقها درجات لم يبلغها بعد ، كما ذكر الله بقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ﴾ ، فهو من أجل هذا يحتاج إلى الإقرار به والتصديق بقول من هو أعرف وأعلم منه"³⁴ .

وقال إخوان الصفاء عن القوة المفكرة: "ثم اعلم أن القوة المفكرة لها أفعال كثيرة تستغرق فيها أفعال سائر القوى ، وذلك أن أفعالها نوعان: فمنها ما يخصصها بمحورها ، ومنها ما يشترك مع قوى أخرى. فمنها الصنائع كلها فإنها مشتركة بينها وبين القوة الصناعية ، ومنها الكلام

وأقويل اللغات فإنها مشتركة بينها وبين القوة الناطقة ، ومنها تناو لرسوم المعلومات المحفوظة فإنها مشتركة بينها وبين القوة الحافظة ، وأما التي تخصها من الأفعال فالفكر والروية والتصور والاعتبار والتركيب والتحليل والجمع والقياس ولها الفراسة والزجر والتكهن والخواطر والإلهام وقبول الوحي وتخيل المنامات ، وتقصيل ذلك: فأما بالفكر فاستخراج الغوامض من العلوم ، وبالروية تدير الملك وسياسة الأمور ، وبالتصور درك حقائق الأشياء ، وبالاعتبار معرفة الأمور الماضية من الزمان ، وبالتركيب استخراج الصنائع أجمع ، وبالتحليل معرفة الجواهر البسيطة والمبادئ ، وبالجمع معرفة الأنواع والأجناس ، وبالقياس درك الأمور الغائبة بالزمان والمكان ، وبالفراسة معرفة ما في الطبائع من الأمور الخفية ، وبالزجر معرفة حوادث الأيام ، وبالتكهن معرفة الكائنات بالموجبات الفلكية ، وبالمنامات معرفة الانذارات والبشارات ، وقبول الخواطر والإلهام والوحي معرفة وضع النواميس وتدوين الكتب الإلهية وتأويلاتها المكنونة التي لا يمسه إلا المطهرون من أدناس الطبيعة الذين هم أهل البيت الروحانيون³⁵.

ويتضح من نصهم أن أفعال القوة المفكرة تصنف قسمين:

- ما يخصها بمحدها وتمثل في: الفكر والروية والتمييز والتصور والاعتبار والتركيب والجمع والقياس والبرهاني ، ولها أيضا الفراسة والزجر والتكهن والخواطر والإلهام والوحي ورؤية المنامات وتأويلها.
- منها ما يشترك مع قوى أخرى وتمثل في: الصنائع كلها فإنها مشتركة بينها وبين القوة الصناعية ، والكلام وأقويل اللغات فإنها مشتركة بينها وبين القوة الناطقة ، وتناول رسوم المعلومات المحفوظة فإنها مشتركة بينها وبين القوة الحافظة.

رابعا: أفعال القوة الناطقة

أدرج إخوان الصفاء فصلا بعنوان: "في ما يختص بالقوة الناطقة من الأفعال" شرحوا فيه كيفية تأليف الألفاظ التي تحمل معاني بمعونة القوة المفكرة ثم تندفع إلى القوة المعبرة لتخرج إلى الهواء بأصوات مختلفة لتنقل إلى مسامع الحاضرين ويتضح ذلك في قولهم: "اعلم أن من شأن القوة الناطقة إذا استعانت بها القوة المفكرة في النيابة عنها في الجواب والخطاب أن تؤلف ألفاظ من حروف المعجم بنغمات مختلفة السمات التي هي الكلام ، ثم تضمن تلك الألفاظ المعاني التي هي مصورة عند القوة المفكرة فتدفعها عند ذلك إلى القوة المعبرة لتخرجها إلى الهواء بالأصوات المختلفة في اللغات لتحملها إلى مسامع الحاضرين بالقرب

فتكون تلك الألفاظ المؤلفة من الحروف المختلفة الأشكال والسمات كالأجساد المركبة من الأعضاء المختلفة ، وتكون تلك المعاني المضمنة في تلك الألفاظ كالأرواح لها ؛ لأن كل لفظة لا معنى لها فهي بمنزلة جسد لا روح فيه ، وكل معنى في فكر النفس ليس له لفظة تعبر عنه فهو بمنزلة روح لا جسد له³⁶.

وبين إخوان الصفاء علاقة القوة الناطقة بالقوة الصناعية فالأولى مدتها الزمنية قصيرة لا تلبث حتى تتلاشى في الهواء (الكلام) وتنسى مادامت لم تقيد بالقوة الصناعية (الكتابة) فقالوا في هذا الصدد: "وقد بيّنا كيفية حمل الهواء صور الأصوات وحفظها بهيأتها إلى أن توردها وتؤديها إلى السمع في رسالة الحاس والمحسوس ، وذكرنا أيضا أن الأصوات لما كانت لا تمكث في الهواء إلا ريثما تأخذ المسامع حظها ثم تضمحلّ احتالت الحكمة الإلهية بأن قيدها بالقوة الصناعية التي هي الكتابة: وذلك أن القوة الفكرة لما رأت أن الكلام لا يثبت في الهواء دائما لأنه جسم سيّال احتالت حيلة أخرى واستعانت بالقوة الصناعية أن نقشت حروفا خطوية بالقلم تحاكي معاني حروف لفظية ، ثم ألفتها ضروبا لتأليف حتى صارت كتابا مكتوبا وأودعتها وجوه الألواح وبطون الطوامير لكيما يبقى العلم مفيدا فائدة من الماضيين للغابرين من الأولين للآخرين وخطابا للحاضرين من الغائبين وبالعكس. وهذا من جسيم نعم الله تعالى على الإنسان كما ذكر الله تعالى في كتابه: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾³⁷.

ويتضح من النصين علاقة القوتين الناطقة والصناعية (الكتابة) ، فالكتابة عبارة عن نقوش على هيئات معينة لا توجد إلا بتفكير القوة الناطقة ، فالكتابة فينظر إخوان الصفاء مكملة للنطق وتابعة له.

خامسا: أنواع العلم

يؤكد إخوان الصفاء أن للعلوم أجناس كثيرة وكل جنس أنواع مختلفة ، وأهل كل علم متفاوتو الدرجات حسب قوة نفوسهم وطول ممارستهم ودقة نظرهم فقالوا في هذا الشأن: "ثم اعلم أن العلوم أجناس كثيرة ، ولكل جنس أنواع متفننة وكل نوع منها بحر زاخر ، وأهل كل علم متفاوتو الدرجات فيها: مبتدئ متعلم ، وعالم راسخ ، وما بينهما من الطبقات. ولأهل كل علم ومذهب أدلة قد نصبها لهم البارئ تعالى فهم يصيبون ويخطئون في أحكامهم والاستدلال بها ، فمقل ومكثر. كل ذلك بحسب قوى نفوسهم وطول دربتهم ودقة نظرهم فيها"³⁸.

ويصنّفون العلم إلى صنفين:

* علم يؤدي بطالبه إلى طلب الآخرة فيكون نعمة عليه.

* وعلم يكون وبالاعلى صاحبه وحجة عليه يوم القيامة.

أما العلوم الإلهية فقد جعلوها غايتهم القصى والغرض الأساس من وراء دراستهم للعلوم فقالوا في هذا الصدد: "واعلم يا أخي بأن كل علم وأدب لا يؤدي صاحبه إلى طلب الآخرة، ولا يُعينه على الوصول إليها، فهو وبال على صاحبه وحجة عليه يوم القيامة، وذلك أن الملوك والجبابة والفراعة والقرون الماضية كانت لهم عقول رضية، وآداب بارعة، وسياسة وحكمة وصنائع عجيبة، وهكذا من كان يعاشرهم وينادهمم ويقرب إليهم، من وزرائهم وكتائبهم وعمالهم وقوادهم وعلماهم وأدباهم، ولكن هلكوا من أجل أنهم صرفوا تلك القوى والعقول والإفهام وأكثر أفكارهم وتمييزهم ورويتهم في طلب شهوات الدنيا والتمتع بلذاتها ونعيمها، بالرغبة الشديدة والحرص والتنبي للخلود فيها، وجعلوا أكثر كدهم وسعيهم في صلاح أمور الدنيا، حتى عمروها وأهملوا الآخرة وذكر المعاد، ولم يستعدوا له، وذكروا الدنيا وغفلوا عن الآخرة، ولم يتزودوا من الدنيا، وتركوها لغيرهم، ورحلوا عنها كارهين، فصارت تلك البعم وبالاعليهم، إذ لم ينالوا بها الآخرة، فخسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين"³⁹.

ويدعم إخوان الصفاء حجتهم بشواهد من القرآن حول عاقبة الذين أصرّفوا في الدنيا وأهملوا العلم بقولهم: "وإنما أكثر الله سبحانه في القرآن ذم هؤلاء وسوء الثناء عليهم، لكيما يعتبر بهم المعبرون ممن يحيى بعدهم، ويتعظون بحالهم، ولا يفترون بالدنيا كما غترارهم، كما قال الله جلّ ذكره: ﴿فَلَا تَعْرَبْكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَبْكُمْ بِاللَّهِ الْعَرُورُ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وِرْيَةٌ﴾ إلى آخر الآية، وقال تعالى ذكره: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ الآية وقال إنما: ﴿مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ وآيات كثيرة في القرآن في ذم الراغبين في الدنيا، والتحذير منها ومن غرورها وأمانيتها، كل ذلك نصح من الله سبحانه لعباده المؤمنين، ولطف بهم ونظر ورحمة، لئلا تفوتهم الآخرة كما فاتت أولئك، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ليهلك من هلك على بينة، ويحيى من يحيى عن بينة، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾⁴⁰.

كما قسموا العلم إلى:

* علوم طبيعية غريزية (حدسية): تدرك بالحواس كالعلوم الميتافيزيقية وعلم النفس.

* علوم تعليمية مكتسبة: الرياضيات، الأداب....

وذلك في قولهم: "ثم اعلم أن العلم بالأشياء بعضه طبيعي غريزي مثل: ما يدرك بالحواس ومثلها في أوائل العقول وبعضه تعليمي مكتسب مثل: الرياضيات والآداب وما يأتي به الناموس"⁴¹.

وقد جعل إخوان الصفاء لكل فرع من العلوم أمة تتكفل به حتى لا يفرض فقالوا: "ثم اعلم أن الله تعالى خلق لكل نوع من هذه العلوم والآداب أمة من الناس وجعل في جيلة نفوسهم محبة معرفتها ومكنتهم من طلبها وتعلمها والبحث عنها والنظر فيها لتكون العلوم والآداب محفوظة عليهم لا تنقرض، كما خلق لكل صناعة وتجارة أمة من الناس وجعلها سبب معاشهم طول حياتهم في دنياهم لتكون كلها محفوظة باقية لحاجة الإنسان إليها في الدين والدنيا جميعاً"⁴²، ويقصد إخوان الصفاء بهاته الفئة الحافظة:(الأسانذة).وقد أدركوا أن العلوم تتفاضل حسب درجة أهميتها، كما أن أفضل صناعاتها هم الحاذقون فيها لقولهم: "ثم اعلم أن العلوم والآداب تتفاضل كما أن الصنائع والتجارات والأعمال تتفاضل، وأن أهلها يتفاضلون فيها. وأفضل كل أهل علم هم الراسخون في العلم العارفون بأصوله وفروعه، كما أن أفضل أهل الصناعة والتجارة هم الحذائق بها الأستاذ ونفيها"⁴³.

ورغم كثرة وتنوع العلوم وكل طائفة من الناس تختص بعلم معين، إلا أن (علم الدين) يصلح للخاص والعام وسائر الطبقات الاجتماعية لقولهم: "ثم اعلم أن الناس على طبقات كثيرة في أحوالهم من الصنائع والأعمال والأخلاق والآراء والمذاهب والعلوم والمعارف لا يحصى عددها، ولكن يحصرهم كلهم ثلاث طبقات: فمنهم العامة من النساء والصبيان والجهال، ومنهم الخاصة من العلماء والحكماء البالغين فيها الراسخين، ومنهم متوسطون بين ذلك. ولكل طائفة من هؤلاء علمه وأولى بهم وأليق: فالتى تصلح للخاصة لا تصلح للعامة، والتي تصلح للعامة لا تصلح للخاصة، ولكن الذي يصلح للخاص والعام وما بينهما من سائر الطبقات جميعاً من العلوم والمعارف والآداب هو علم الدين وآدابه وما يتعلق به من الأعمال"⁴⁴.

سادساً: أصناف المتعلمين

صنّف إخوان الصفاء المتعلمين إلى:

- فئة لا ترغب في التعليم وتعتمد على ما تدركه العقول وذلك في قولهم: "فمن الناس من لا يرغب في التعليم والتأدب بل يتكلم على ما تدركه الحواس أو ما في قرائح العقول"⁴⁵.
- فئة ترغب في التعليم وتعتمد على البرهان الهندسي أو المنطقي في قولهم: "ومنهم من يرغب في التعلم

والتأدب لكن من الناس من لا يقبل من العلم إلا ما يتصور في نفسه أو يقوم عليه برهان هندسي أو منطقي⁴⁶.

- فئة لا تقبل إلا على أقوال الشعراء أو الروبوتات أو الاحتجاج والجدل ومنهم من يرضى بالتقليد في

قولهم: "ومنهم طائفة لا تقبل إلا ما يدل عليه قول الشاعر، وطائفة لا تقبل إلا برواية وخبر، ومنهم طائفة لا تقبل إلا بالاحتجاج والجدل. ومنهم من يرضى بالتقليد ويقنع بذلك"⁴⁷.

ويشتهي المتعلمون دراسة فروع معينة من العلوم حسب رغباتهم وقدراتهم فقالوا: "ومنهم من تكون محبته في لقاء أهل العلم واستماع كلام العلماء وطلب العلوم والأدب ومعرفة الأخبار والروايات والآثار. ومنهم من تشتهي نفسه علم النحو والشعر والخطب والفصاحة والأقويل والكلام وما شاكل هذه ويلتذ بها. ومنهم من يشتهي علم الأحساب والهندسة والنجوم والطب والمنطق والرياضيات الحكيمة وما شاكلها ويكذبها، ومنهم من تشتهي نفسه علم العزائم والرقي والسحر والكيمياء والحيل وما شاكلها وتلتذ بها. ومنهم من يشتهي النظر في العلوم الطبيعية والإلهيات والبحث عنها وعن حقائق الموجودات الكائنات الفاسدات والباقيات المخلدات كل ذلك على ما توجهه أحكام النجوم في أصول مواليدهم وعاداتهم عند نشوئهم على سنن آبائهم وأستاذيهم ومعلميهم ومن يصحبونه في الطلب طول أعمارهم من إخوانهم وأصدقائهم" وينصح إخوان الصفاء دراسة المتعلم التخصص الذي يليق بقدراتهم فقالوا: "فانظر يا أخي بعقلك وميِّز بصيرتك واختر لنفسك من هذه المشتبهات ما يليق بها وترضى لها به. واعلم أن من الأمور ما هي جيلة مركوزة في النفس ومنها ما هو عادة جارية وألفة معتادة إذا دام عليها الإنسان صارت جيلة وطبيعة ثانية"⁴⁸.

وقد أدرك إخوان الصفاء مبلغ طاقة المتعلم في إدراك المعلومات والمحسوسات وإلى أي حد تنتهي ويتجلى ذلك في قولهم: "وينبغي لنا أن نبين مبلغ قوة الإنسان في إدراك المعلومات والمحسوسات إلى أي نهاية وهي جهده وطاقته في معرفة حقائق الأشياء وإلى أي حد ينتهي؛ لأن في الناس طائفة من العقلاء لما تفكروا في حدوث العالم وبحثوا عن العلة الموجبة لكونه بعدان لم يكن لم يعرفوها ولم يتصوروا في عقولهم بدء كون العالم فدعاهم جهلهم عند ذلك إلى القول بقدم العالم ومنهم من لاحله شيء غير ما لاحل الآخر فاختلفت أقاويلهم في حدوث العالم والعلة الموجبة لكونه بحسب ما لاحلوا واحد واحد"⁴⁹.

ويحث إخوان الصفاء المتعلمين على الاختيار الدقيق للفرع الذي يريدون دراسته، فيكون لا ثقاً بقدراتهم وممكننا تعاطيه فيقولون إثر ذلك: "ثم اعلم أنه ليس كل علم وأدب يليق بكل إنسان أن يتعلمه ويتعاطاه، ولكن أولى العلوم بكل إنسان أن يتعلمها لا يسعه جهله

وواجب عليه طلبه. فانظر يا أخي أولاً بعقلك ، وميّر ببصرك ، واختر من العلوم والآداب ما لا بد لك منه ، كما تختار من الأعمال والصناعات والتجارات ما لا بد لك منها⁵⁰

سابعاً: أهمية العلم

قال إخوان الصفاء: "واعلم أنه كما أن المال يتمكن الإنسان بهم ما يريده من اللذات في الدنيا وطيب العيش ، فهكذا بالعلم تتمكن النفس من اللذات في الدار الآخرة ، وبالعلم يتقرب إلى الله أبناء الآخرة ، وبه يتفاضل بعضهم على بعض ، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية. واعلم أن بالعلم تحيا النفوس من موت الجهالة ، وبه تنتبه من نوم الغفلة كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ﴾ الآية ، فالعلم يهديك إلى طريق ملكوت السماء ، ويُعينك على الصعود إلى هناك ، كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ وأخبر عن أهل الجهالة فقال: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾. وهذا وعيد لهم بالإيأس عن الصعود إلى ملكوت السماء ، فأعذك أيها الأخ أن ترضى بأن تكون منهم أو معهم ، وقيل إن المرء مع من أحب ، بل كُنْ من الذين أمرهم رسول الله فقال: كُنْ عالماً أو متعلماً ، أو تجالس العلماء أو تحب العلماء ، وإياك والخامس إلا أن تكون من الطوائف⁵¹.

وقالوا في موضع آخر: "ثم اعلم أن العلم غذاء للنفس وحياة لها كما أن الطعام وجميع المتناولات غذاء وشراب للجسد وحياة له"⁵².

فالعلم لاريب مهم في محاربة الأفكار الهدامة ، فهو مفتاح كل خير ، والوسيلة الوحيدة إلى أداء ما أوجب الله وترك ما حرّمه ، فالأقوال والأعمال التي بغير علم لا قيمة لها ، ولا نفع بها ، بل تكون عواقبها وخيمة ، وقد تجرّ أصحابها إلى ضلال وفساد ، فالعلم غذاء الروح ، وطهارة للنفس والأفعال.

ثامناً: فضل طلب العلم

عقد إخوان الصفاء فصلاً كاملاً بعنوان: "فضل طلب العلم" قالوا فيه: "واعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، بأن الله جلّ ثناؤه ، قد فرض على المؤمنين أشياء كثيرة يفعلونها ، ونهاهم عن أشياء كثيرة يتركونها ، كما قلنا آنفاً. ولكن ليس من فريضة من جميع مفروضات الشريعة وأحكام الناموس أوجب ولا أفضل ولا أجلّ ولا أشرف ولا انفعل عبد ، ولا أقرب له إلى ربه بعد الإقرار به ، والتصديق لأبيائه ورسله فيما جاؤوا به وخبروا عنه ، من العلم وطلبه وتعليمه وبيان ذكر شرف العلم ، على ما ذكرناه من فضيلته وجلالته وفضل طلبه وتعليمه ، ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: تعلّموا العلم فإن في تعلمه لله خشية ، وطلبه

عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمونه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لأنه مع المال حلال والحرام ، ومنار سبيل الجنة ، والمؤنس في الوحدة والوحشة ، والصاحب في الغربة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والمقرب عند الغرباء ، والزَيْن عند الأخلاء ، يرفع الله به أقواما في جعلهم في الخير قادة يُهتدى بهم ، وأئمة في الخير تُقتفى آثارهم ، ويوثق بأعمالهم ، ويُنْتَهَى إلى آرائهم ، وترغب الملائكة في خَلَّتْهم ، وبأجنتها تمسحهم ، وفي صلاتها تستغفر لهم ، ويستغفر لهم في كل رطبٍ ويابس ، حتى الحيتان في البحر وهوائمه ، وسباع البرِّ وأنعامه ، والسماء ونجومها ؛ لأن العلم حياة القلب من الجهل ، ومصايح الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازلًا لأحرار ومجالس الملوك ، والدَّرَجَات العُلَى في الدنيا والآخرة ، والفكر فيه يُعَدِّل بالصيام ، ومُدَارَسَتُهُ بالقيام ، به يطاع الله ، وبه يُعْبَد ، وبه يُعَلَّم الخير ، وبه يُتَوَرَّع ، وبه يُؤَجَّر ، وبه تُوصَل الأرحام ، وبه يُعرف الحلال والحرام. واعلم أن العلمَ إمامُ العمل ، والعمل تابعه ، ويُلهمه الله السعداء ، ويحرمه الأشقياء"⁵³.

تاسعا: خصال طالب العلم

بيّن إخوان الصفاء احتياجات طالب العلم فقالوا: "واعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، بأن طالب العلم يحتاج إلى سبع خصالٍ ، أولها: السؤال والصمت ، ثم الاستماع ، ثم التفكّر ، ثم العمل به ، ثم طلب الصدق من نفسه ، ثم كثرة الذكر أنه من نعم الله ، ثم ترك الإعجاب بما يُحسِنه"⁵⁴.

ومنافع العلم على طالبه عشر خصال محمودة وهي تتجلى في قولهم: "والعلم يُكسب صاحبه عشر خصال محمودة ، أولها: الشرف وإن كان دنيا ، والعز وإن كان مهينا ، والغنى وإن كان فقيرا ، والقوة وإن كان ضعيفا ، والتبّل وإن كان حقيرا ، والقرب وإن كان بعيدا ، والقدر وإن كان ناقصا ، والوجود وإن كان بخيلا ، والحياء وإن كان صليفاً ، والمهابة وإن كان وضعيا ، والسلامة وإن كان سقيما ، وقال الله جل ذكره: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، وقال: ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ، وآيات كثيرة في القرآن فيمدح العلماء وفضائلهم ، وحسن الثناء عليهم فيمثل ذلك"⁵⁵.

عاشرا: آفات يتجنبها طالب العلم

يحدّر إخوان الصفاء طالب العلم من عيوب وآفات أخلاقية تدمر علمه وتضيع رسالته النبيلة فقالوا: "واعلم يا أخي بأن للعلماء ، مع كثرة فضائل العلم ، آفات وعيوبا وأخلاقا رديّة تحتاج أن تتجنبها وتحذرها ، فمنها الكبرُّ والعجب والافتخار وقد روي عن رسول الله أنه

قال: "من ازداد علما ولم يزدد لله تواضعا ، وللجهال رحمة ، وللعلماء مودة ، لم يزدد من الله إلا بعدا"، ومنها كثرة الخلاف والمنازعة فيه ، وطلب الرياسة به ، والتعصب والعداوة والبغضاء فيما بينهم ، وقال لقمان الحكيم لابنه: "يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك ، فإن الله يُحي القلوب الميتة بنور العلم ، كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر ، وإياك ومنازعة العلماء ، فإن الحكمة نزلت من السماء صافية ، فلما تعلمها الرجال صرفوها إلى أهواء أنفسهم". ومن آفات العلماء: الخوض في المشكلات ، والترخيص في الشبهات ، وترك العمل بموجبات العلم. ومن آفات العلماء أيضا كثرة الرغبة في الدنيا وشدة الحرص في طلبها وقد قيل في المثل إن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والحرص في طلبها مرض للنفس وسقام لها ؛ وعلماء أحكام ناموسهم أطباء النفوس ومداوؤها ، فمثل العالم الراغب في الدنيا ، الحريص على طلب شهواتها ، كمثل الطبيب المداوي غيره وهو مريض لا يرجى صلاحه ، فكيف يشفي المريض بعلاجه ؟ وقد قيل إن عالما زاهدا في الدنيا ، يكون عالما بدين الله ، وبصيرا بطريق الآخرة ، خير من ألف عالم راغب فيها. وقال المسيح عليه السلام: أيها العلماء والفقهاء قعدتم على طريق الآخرة ، فلا أنتم تسرون إليها فتدخلون الجنة ، ولا تتركون أحدا يجوزكم فيصل إليها ، وإن الجاهل أعدر من العالم ، وليس لواحد منها عُذر"⁵⁶.

خاتمة:

إن محاولة التعرف على قضايا اللسانيات التعليمية في تاريخ الأمة العربية ، هو محاولة للتعرف على خصائص التعليم والتعلم لدى مختلف العلماء السابقين الذين كانت لهم بصمات مؤثرة في عالم الدراسات اللسانية التعليمية العربية ، ومن خلال الاطلاع على رسائل إخوان الصفاء تبين غناؤها بفلسفة تعليمية قريية من مفاهيم قضايا التعلم والتعليم في هذا العصر ؛ وهذا يدعوننا إلى أن نستأنس بفلسفتهم ، ونتمعن في كنهها.

- الهوامش والإحالات:

¹- ينظر ، هناء محمد جمال الدين ، وعائشة بليهش العمري ، المدخل إلى تقنيات التعليم ، مكتبة دار الزمان ، ط1 ، المدينة المنورة ، 1429هـ ، 2008م ، ص44.

²- إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، مكتب الإعلام الإسلامي ، دط ، قم ، 1405هـ ، مج1 ، ص399.

³- حسن إسماعيل ، ويوسف ملك ، التعريف وتبسيط العلوم ، دار الفارابي ، ط1 ، بيروت ، 2015م ، ص76.

⁴- ينظر ، حسن إسماعيل ، ويوسف ملك ، المرجع السابق ، ص77.

- ⁵- الكندي ، رسالة الحدود والرسوم ، نقلًا عن: عبد الأمير الأعمش ، المصطلح الفلسفي عند العرب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2 ، القاهرة ، 1989م ، ص 193.
- ⁶- أحمد الشريف الجرجاني ، التعريفات ، مكتبة لبنان ، دط ، بيروت ، 1985م ، ص 161 .
- ⁷- ينظر ، حسن إسماعيل ، ويوسف ملك ، المرجع السابق ، ص 77 ، 78.
- ⁸- ينظر ، نفسه ، ص 79.
- ⁹- ينظر ، سناء نهر أبو شهاب ، مدخل إلى التربية الأخلاقية والتعليم وأثارها المترتبة على إنماء المجتمع ، دار المعترف للنشر ، ط1 ، الأردن ، 2017 م ، ص 119.
- ¹⁰- محمود داود الربيعي ، التعلم والتعليم في التربية البدنية والرياضية ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، 2012م ، ص 7-8.
- ¹¹- نفسه ، ص 9.
- ¹²- نفسه ، ص 9.
- ¹³- نفسه ، ص 9.
- ¹⁴- نفسه ، ص 9 ، 10.
- ¹⁵- ، ص 10.
- ¹⁶- ينظر ، محمود داود الربيعي ، المرجع السابق ، ص 8.
- ¹⁷- يوسف لازم كماش ، وعبد الكاظم جليل حسان ، سيكولوجية التعلم والتعليم ، دار الخليج ، ط1 ، الأردن ، 2018م ، ص 22.
- ¹⁸- إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، تح: خير الدين الزركلي ، المطبعة العربية ، دط ، مصر ، 1928م ، مج3، ص383.
- ¹⁹- وسام صلاح عبد الحسين ، التعلم المتناغم مع الدماغ (تطبيقات لأبحاث الدماغ في التعلم) ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، 2015م ، ص 11.
- ²⁰- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج3 ، ص 383-384.
- ²¹- نفسه ، ص 384.
- ²²- ينظر ، حاتم حسين البصيص ، تنمية مهارات القراءة والكتابة ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، دط ، دمشق ، 2011م ، ص 50 ، 51.
- ²³- وسام صلاح عبد الحسين ، المرجع السابق ، ص 11.
- ²⁴- ينظر ، ذوقان عبيدات ، وسهيلة أبو السميد ، الدماغ والتعلم والتفكير ، مركز ديونو لتعليم التفكير ، عمان ، ط2 ، 2013م ، ص 15 ، 20.
- ²⁵- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج3 ، ص 390.
- ²⁶- ينظر ، وسام صلاح عبد الحسين ، التعلم المتناغم مع الدماغ (تطبيقات لأبحاث الدماغ في التعلم) ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، 2015م ، ص 5.
- ²⁷- ينظر ، كامل سرمك حسن ، لغة الجسد والايتيكيت في العمل الإداري ، دار البيازوري العلمية ، ط1 ، عمان ، 2013م ، ص 28.
- ²⁸- ينظر ، وسام صلاح عبد الحسين ، المرجع السابق ، ص 6 ، 7.
- ²⁹- ينظر ، ذوقان عبيدات ، وسهيلة أبو السميد ، المرجع السابق ، ص 39.

- 30- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج3 ، ص390.
- 31- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج3 ، ص390-391.
- 32- نفسه ، ص392.
- 33- ينظر ، محمد بن أحمد الفوزان ، وخالد بن ناهس الرقاص ، أسس التربية الخاصة(الفئات ، التشخيص ، البرامج التربوية) ، مكتبة العبيكان ، ط1 ، الرياض ، 1430هـ ، 2009م ، ص307.
- 34- إخوان الصفاء ، رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، تح: خير الدين الزركلي ، المطبعة العربية ، دط ، مصر ، 1928م ، مج4 ، ص126.
- 35- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج3 ، ص240.
- 36- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج3 ، ص239.
- 37- نفسه ، ص239-240.
- 38- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج4 ، ص38.
- 39- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج3 ، ص349.
- 40- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج1 ، ص349-350.
- 41- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج3 ، ص37.
- 42- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج4 ، ص45-46.
- 43- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج3 ، ص46.
- 44- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج3 ، ص46.
- 45- نفسه ، ص37.
- 46- نفسه ، ص37.
- 47- نفسه ، ص37.
- 48- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج4 ، ص67.
- 49- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج3 ، ص37.
- 50- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج4 ، ص46.
- 51- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج1 ، ص399-400.
- 52- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج3 ، ص37.
- 53- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج1 ، ص346-347.
- 54- نفسه ، ص347-348.
- 55- إخوان الصفاء ، المصدر السابق ، مج1 ، ص348.
- 56- نفسه ، ص348-349.